مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية
العدد السابع – المجلد الثاني
أكتوبر 2018 م
ISSN: 2522-3380

المجلة العربية للعلوم و نشر الأبحاث
Arab Journal of Sciences & Research Publishing
AJSRP

قراءة في التراث الشعري للعصر العباسي
الزمكانية في قصيدة (يأتي على الخلق إصباح وإمساء) لأبي العلاء المعري

روضة بلال المولد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية || جامعة الملك عبدالعزيز || جدة || المملكة العربية السعودية

الملخص: تتناول هذه الدراسة قصيدة (يأتي على الخلق إصباح و إمساء) لأبي العلاء المعري، وفق دراسة زمكانية تناولت عنصر المكان والزمان في القصيدة، وعلى الرغم من وجود دراسات تطرقت إلى شعر المعري من الناحية الفنية والتاريخية، اتخذت هذه الدراسة من المنهج الوصفي التحليلي مدخلا تلج منه لقراءة هذه القصيدة وتحليلها، وتجلية أنواع الزمكانية فيها.

وهدفت هذه الدراسة إلى قراءة القصيدة قراءة مختلفة من خلال التركيز على الفضاء الشعري الذي يتيح للقارئ التعمق الدقيق في النص الشعري، وسبر أغوار معانيه، فتتكشف الحالة الشعورية للشاعر، وتتجلى القيم الجمالية في النص مشخصة نظرة الشاعر إلى الحياة، عبر الدلالات اللغوية التي تحاول الدراسة استنطاقها.

وخلصت الدراسة إلى نتائج من أهمها: تنوع الأماكن عند أبي العلاء المعري، فهناك المكان المتناهي في الكبر والمكان المفتوح والمغلق، والمعادي والأليف، وجميعها تشير إلى دلالات نفسية يكتظ بها قلب الشاعر. كما أبرز الزمن التجارب والانفعالات التي صاحبت الحالة الشعورية للشاعر، إذ إن الزمن وضح الدلالة النفسية المقترنة بشعور الشاعر، فغدت جلية واضحة.

الكلمات المفتاحية: الزمكانية، أبو العلاء المعري، ، المتناهي في الكبر، المفتوح، المغلق، المعادي، الأليف، المطلق، المقيد.

المقدمة

يُعِدَّ العصر العباسي حصيلة لظروف كثيرة تنوعت ما بين العوامل السياسية والاجتماعية، ونتيجة لتلك الظروف ساد الترف وتدفقت الأموال، وأثرى الناس، فانصرف بعضهم إلى العلم، والبعض الآخر إلى البذخ والترف، فظهر شعراء المجون وشعراء الزهد، ونظمت قصائد كثيرة تنبذ الحياة والمكان، وقد رصدت الدراسة قصيدة لأبي العلاء المعري بعنوان (يأتي على الخلق إصباح وإمساء)؛ لتكون محط التحليل.

مشكلة البحث:

لقد حرص البحث على دراسة الزمكانية في القصيدة، وتكمن أهمية الموضوع في كون القصيدة على حد علمي لم تدرس دراسة زمكانية، ولم تنل حظها من الشرح والتحليل، وهذا مدعاة للبحث والدراسة. وستحاول هذه الدراسة فتح أبواب النص الإبداعي؛ لتسليط الضوء على أهم بنياته العميقة.

منهجية البحث:

إن الدراسات الأدبية مقترنة بالمناهج النقدية، التي تتيح للدارس السير وفق منهجية صحيحة، من هنا تجسدت الحاجة في اختيار المنهج الوصفي التحليلي الذي يقوم بتحديد الظاهرة، ووصف طبيعتها، وإيضاح نوعية العلاقة بين متغيراتها.

وسيحاول البحث الإجابة على التساؤلات التالية: -كيف تشكلت الزمكانية في شاعرية الشاعر؟ -هل أسهمت الزمكانية في تشخيص حالته الشعورية؟

وللإجابة عن هذه التساؤلات المطروحة سيتم تقسيم البحث إلى تمهيد يتناول التعريف بالشاعر، وإيضاح مفهوم الزمكانية، ثم التحليل الوصفي للقصيدة، وستركز الدراسة على الدلالات المكانية، التي تسعى إلى الكشف عما يحمله الشاعر للمكان من مشاعر، كما سيعتمد البحث على الزمانية في القصيدة؛ لإيضاح أهمية هذا العنصر في عملية بناء النص، وما له من دلالات، ورموز تكشف عن الحالة الشعورية للشاعر، ويلي ذلك الخاتمة التي ستتضمن أهم النتائج التي تم الوصول إليها، ثم قائمة المصادر والمراجع.

الدراسات السابقة:

إن أساسيات البحث العلمي توجب علينا ذكر بعض الدراسات التي تناولت شعر المعري، ومن تلك الدراسات التقليد في شعر أبي العلاء المعري دراسة وصفية تحليلية، لخالد بن أسيمر البلوي، والنقد الاجتماعي في لزوميات أبي العلاء المعري، لميسون محمود فخري، كذلك الصورة الأدبية، لمصطفى ناصف، والشعور بالاغتراب عند أبي العلاء المعري، والبير كامو، لعبد القادر توزان، وغيرها من الدراسات، أما هذه الدراسة، فتختلف عن تلك الدراسات في كيفية التناول إذ اعتمدت على إظهار أنواع الزمكانية في قصيدته.

نسأل الله العلي القدير التوفيق، والسداد، والحمد لله رب العالمين.

ملحق: قصيدة لأبي العلاء المعري

(يأتي على الخلق إصباحٌ و إمساءُ) [1]

يَـأْتِي عَلَى الْخَلْـقِ إصْـبَاح وَإِمسـاءُ ... وَكُلّنَـا لِصُـرُوفِ الـدَّهْرِ نَسَّـاء

وَكَـمْ مَضَـى هجـرِيٌّ أَوْ مُشـاكِلُهُ ... مِنَ الْمَقَاول سَرَوَا النَّاسَ أَمْ ساءوا

تَتْـوَى الْمُلُـوكُ وَمِصْـرٌ فِي تَغَيُّـرِهِمْ ... مِصْرٌ عَلَى الْعَهْدِ وَالْأَحْسَاء أَحَسَاء

خَسِسـتِ يـا أُمّنَـا الـدُّنْيَا فَـأُفٍّ لَنَـا ... بَنـو الْخَسِيسَـة أَوْبَـاشٌ أَخِسّـاءُ

وَقَـدْ نَطَقْـتِ بِأَصْـنَافِ الْعِظَـاتِ لَنَـا ... وَأَنْـتِ فِيمَـا يَظِـنُّ الْقَـوْم خَرْسَـاء

وَمِـنْ لِصَـخْرِ بُـنِ عَمْـرٍو أَنَّ جُثَّتَـهُ ... صَخْرٌ وَخَنْسَاءُ فِي السِّرْبِ خَنْسَاء

يَمُـوجُ بَحْـرُكِ وَالْأَهْـوَاءُ غَالِبَـةٌ ... لِرَاكِبَيْـهِ فَهَـلْ لِلسُّـفْنِ إرْسَـاء

إذاَ تَعَطَّفْـتِ يَوْمًـا كُنْـتِ قَاسِـيَةً ... وَإِنْ نَظَـرْتِ بِعَـيْنٍ فَهِـيَ شوسَـاءُ

إِنْسٌ عَلَى الْأَرْضِ تُـدَمّي هامَّهَا إِحَـن ... مِنهَـا إذاَ دَمِيـتِ لِلْـوَحْشِ أَنْسَـاءُ

فَـلَا تَغُرَّنَـكَ شُـمٌّ مِـنْ جِبـالِهِمُ ... وَعِـزَّةٌ فِـي زَمَـانِ الْمُلْـكِ قَعسـاءُ

نَـالُوا قَلِـيلًا مِـنَ اللَّـذَّاتِ وَارْتَحَلُـوا ... بِـرَغْمِهِمْ فَـإِذَا النِعمـاءُ بَأْسَـاء

(1) أبو العلاء المعري ، الديوان، موسوعة الشعر العربي، العصر العباسي.

التمهيد

1- نبذة عن الشاعر:

"هُوَ أَحْمَدُ بنُ عبدالله بنِ سُلَيْمَانَ بنِ مُحَمَّدِ التَّنُوْخِيُّ، المَعَرِّيُّ .وكنيته: أبو العلاء"[2] كانت ولادته يوم الجمعة عند مغيب الشمس لثلاثٍ بقين من شهر ربيع الأول عام ثلاث وستين وثلاثمئة للهجرة، بِمَعرّة النعمان[3]. شمال غرب بلاد الشام. نشأ وترعرع وطلب العلم في مسقط رأسه، وكان من بيت علم كبير[4].وفضلٍ ورياسة، له جماعة من أقاربه قضاة وعلماء وشعراء[5] أصابه الجدري في أول نشأته في السنة الثالثة أو الرابعة من عمره، وعلى إثره عميت عيناه، فكان يقول: لا أذكر من الألوان سوى الأحمر، لأنه أُلبِسَ حين أُصيب بالجدري ثوبًا مصنوعًا بالعصفر[6]. مات أبو العلاء المعري - رحمه الله تعالى- في يوم الجمعة لِلَيلتَين خلَتا -وقيل ثلاث وقيل ثلاث عشرة- من شهر ربيع الأوّل من سنة تسع وأربعين وأربعمئة، ورُوي أنه لما أحسّ بدنوّ أجله أوصَى أن يُكتب على قبره: (هذا جناه أبي عليَّ وما جنيتُ على أحد) [7].

الزمكانية:

هي: " الارتباط بين حركة الزمن وحركة الجغرافيا إلى درجة أن المكان يصبح مشحونا، ومستجيبا لحركات الزمن والحبكة والتاريخ"[8]. فالزمكانية تعني الزمان والمكان " الذي له دورا كبيرا في تحديد الخصائص الفكرية والنفسية للشخصية، وأكد الدارسون العلاقة المتبادلة بين المكان، والشخصية، وذهبوا إلى أن وظيفة المكان هي إلقاء المزيد من الضوء على الشخصية بغية الكشف عن عالمها الفكري والنفسي"[9].

وسنبدأ بتحليل القصيدة من الناحية المكانية؛ لأهمية المكان إذ تُعِدَّ من أولويات العمل الأدبي، فهو بؤرة لتوظيف الحدث وتشكيله، حيث إنه له علاقة كبيرة بالشاعر.

فالإنسان يرتبط بالمكان؛ لأنه دليل وسر وجوده، وانتمائه للأرض والحياة، وهذا الارتباط له علاقات كثيرة متنوعة، ولكن الأمر يختلف بالنسبة للشاعر، فالعلاقة بين الشاعر، والمكان علاقة غير مباشرة تتجاوز المكان الواقعي بأبعاده المحدودة، فلا يكون استخدامه للمكان اجتلابا بريئا أو مجانبا؛ بل هو استخدام دلالي مقصود، حيث يتلون المكان في شعره بالعديد من الصور النفسية والوجدانية والذهنية، فلا يكن المكان خاضعا للحدود الجغرافية المادية؛ بل يكون خاضعا في وحدة تامة، ومنسابة للتجربة الشعورية والشعرية الخاصة به[10].

---

(2) يُنظَر: محمد بن أحمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء** .تح: شعيب الأرناؤوط، ج18 ط3(مؤسسة الرسالة، بيروت،1985) ص23-24.

(3) ينظر: شمس الدين أحمد ابن خلكان، **وفيات الأعيان**.، تح: إحسان عباس، ج1، ط1، (دار صادر: بيروت، 1971) ص116.

(4) ينظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام**. ج1، ط15 (دار العلم للملايين، بيروت، 2002) ص158.

(5) ينظر: صلاح الدين خليل الصفدي، **نكث الهميان في نكت العميان**. تح: مصطفى عبدالقادر عطا، ج1 ،ط1 ، (دار الكتب العلمية، بيروت، 2007). ص85.

(6) ينظر: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني ، **لسان الميزان** .، ط2 ، ج1، (مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1971). ص204.

(7) شمس الدين أحمد ابن خلكان، مصدر سابق. ص114-115.

(8) آنا زايكا، الزمكانية في الأدبين المصري والفلسطيني ، ع 252(مجلة: 2011).

(9) حسن شوندي ، الزمكانية في رواية أعاصير في بلاد الشام ، مقالة (جامعة آزاد الإسلامية، 1390) ص55.

(10) ينظر: سهيلة عمر، الثنائيات المكانية عند شعراء جماعة الرابطة القلمية من جغرافيا المكان إلى شعرية المكان، د. ط (جامعة الجيلالي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، د. ت)، ص1.

لذلك يُعِدَّ المكان أحد العناصر المهمة في النص الأدبي، التي تمتلك حداً يؤثر في خط سير القصيدة، كما أن له إسهاما بارزا في "سرد الأحداث؛ لاستيعابه مجموعة من الدلالات التي تخرج به عن مجرد حدود جغرافية للمكان، وترفع به إلى آفاق جديدة من المعاني"[(11)]

وقد عمد أبو العلاء المعري إلى استخدام المكان؛ ليعبر عن فلسفته وحالته الشعورية تجاه المكان، وقد لجأ الشاعر إلى استخدام أماكن متنوعة مختلفة في قصيدته، فعلى سبيل المثال نجده في أول قصيدته يستخدم المكان الذي يطلق عليه **بالمكان المتناهي في الكبر**، فيقول:

يَأتي عَلى الخَلقِ إصباحٌ وَإمساءُ

وَكُلُّنا لِصُروفِ الدَهرِ نَسّاءُ

فالمكان الذي تتحول فيه الأوقات هو الأرض، ذلك المكان الفسيح الواسع الذي يجمع الكثير من الخلق، وفيه من المغريات، والملذات ما يجعل الإنسان ينسى، أو يتناسى الصروف، والأوجاع التي تبناها الدهر، ويلطم بها الخلق على وجه الأرض كافة، فالإصباح والإمساء لا يكون لفضاء دون أخر؛ لذلك قدم الشاعر الجار والمجرور على الخلق؛ ليضفي عليه صفة الاختصاص، فهو لا يريد الأمكنة الأخرى، وإنما يريد بوجه التحديد المكان الأرض التي تحتضن الخلق، والأرض كما ذكر من قبل تُعِدَّ من الأماكن المتناهية في الكبر، فالأرض المكان الحي لحياة كل إنسان، وهي **مثار خوف وضياع، ومبعث فقد وهلاك** بالنسبة للشاعر، بالرغم أن الشاعر تناولها مناولة حقيقية، وهذا " خير دليل على عقلانية الخطاب لدى الشاعر من حيث توظيفها لخدمة النص"[(12)] إلا أن الشاعر متوجس من هذا المكان المتناهي في الكبر بجانب انفتاحه، فهو موطن القلق، والخوف لأبي العلاء المعري؛ لأن الأرض بالنسبة له مكان لتلقي الضربات، والصروف، والمشاكل الموجعة، التي لا تنفك تصفعه، وتضربه في الصباح والمساء، إذن هكذا هي الدنيا على وجه الأرض، كما يراها أبو العلاء المعري بنظرته التشاؤمية، الحاقدة على المكان الحقيقي الأرض.

وهكذا نلحظ كيف أن المكان المتناهي في الكبر، استطاع أن يكشف عن علاقة الشاعر به، التي تمحورت في وجس وخوف الشاعر من المكان باعتباره المسؤول الوحيد عن الصروف، والمشاكل التي يتعرض لها الخلق. فنراه في البيت التالي يعلن ذلك في حركة مترددة ومضطربة، فهو يرى المكان أنيسا وبغيضا، ويطلق عليه:

المكان المعادي، والمكان الأليف:

أبو العلا المعري يرى الأرض (المكان) متقلبة ذات مزاج غريب، فهو يعتقد بأنها المكان الباعث للحيرة؛ لأنها ليست على وتيرة واحدة، ونقصد بالمكان المعادي هو: "الذي يحمل أفقا سلبيا منبوذا من ذات الكائن، وهو خبرة ويتخذ صفة المجتمع الأبوي بهرميته السلطة في داخله وعنفه "[(13)]، والمكان الأليف: "هو البيت الذي يوجد فيه الإنسان "[(14)]. ونلمس ذلك في قوله:

(11) صبري حافظ، حول محطة سكة الحديد لإدوارد، مقالة، (مجلة الأقلام: عدد 12، 1986).

(12) حسين سرمك حسن، على الإمارة، لزوميات خمسميل، مقالة، (مؤسسة النور للثقافة والإعلام، بغداد، 2010).

(13) غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، ط1 (دار ابن هانئ، دمشق 1989) ص38.

(14) حمادة سديف، وظيفة المكان وأهميته في الرواية المعاصرة، مقالة (مجلة العهد، بيروت، 2008) ع، 1286.

وَكَم مَضى هَجَرِيٌّ أَو مُشاكِلُهُ

مِنَ المَقاوِلِ سَرّوا الناسَ أَم ساءوا

فالإساءة والسرور سيان في هذا المكان الغامض، وهذه الثنائية النفسية المتناقضة للمكان تبرهن عن الحالة الشعورية المتناقضة التي يحتضنها الشاعر، وهي تعبير ووسيلة استكشافية، واستشفافية لعلاقة الشاعر بالمكان، فالمكان لا يبعث على الطمأنينة، والسكينة لقلب الشاعر، فهو مكان متذبذب ومتناقض لا يشعر بالأمان، فمرة يسر، ومرة أخرى يسيء له، فالمكان هنا هو عبارة عن الدلالة النفسية التي يغدو فيها المكان محمولا بعبارات تعكس الحالة النفسية في ذات الشاعر، وتتحول إلى دلالات رمزية وشعرية شاعرية يؤلف منها الشاعر دلالات خاصة به تعينه عن الإفصاح عن حالته الشعورية " فالبيئة المكانية هي التي تسم الشخصية، وتكسبها الكثير من ملامحها، فإن أبرز ما يحركها تفاعل الذات مع البيئة والوسط المحيط إن إيجابا وإن سلبا"[15] فالشاعر بنظرته الانعزالية يرى المكان مصدر قلق وحيرة، وتجسد ذلك في التضاد الذي دل على تأرجح الشاعر، واضطرابه بشكل دائم وملازم.

إن فكرة الثنائية الضدية بين (السرور، والإساءة) لها علاقة ببنية الفعل المعادي للمكان، مما أدى إلى إكساب المكان شحنات دلالية تفاعلت مع النص الشعري[16]. فكشفت عن النظرة التناقضية التي توشح بها الشاعر.

ونخلص مما سبق إلى قدرة المكان المعادي، والأليف في توضيح تذبذب الشاعر، واضطرابه وتأرجحه، كما أعلن المكان عن نظرة الشاعر إليه بنظرات متعددة، سواء كانت نظرات سلبية أو إيجابية.

وتظهر الحالة الشعورية، والنظرة المعادية بشكل جلي في البيت التالي حيث يقول في المكان المعادي:

تَتوى المُلوكُ وَمِصرٌ في تَغَيُّرِهِم

مِصرٌ عَلى العَهدِ وَالأَحساءُ أَحساءُ

المكان المتمثل في الأرض، والحياة هو عدو الشاعر الذي يمتلك القوة والإبادة والتدمير، فالملوك الذين عاشوا على هذا المكان نالوا الكثير من متاع الدنيا وملذاتها لكنهم رحلوا؛ لأن المكان أقوى منهم " وهنا النظرة لدى أبي العلاء المعري تمتزج بطابع صوفي إذ كان زاهداً في الحياة الدنيا"[17].

فالمكان يغير ويقلب حياة الخلق، إذن هو يمتلك السلطة المسيطرة على الخلق يعنفهم ويقسو عليهم، ثم يهلكهم ويقتلهم، و خير مثال على ذلك الملوك الذين يملكون السلطة والقوة والمتاع إلا أن هناك ما هو أقوى منهم، فلم يستطيعوا أن يتغلبوا على هذا المكان، ويفرضوا سيطرتهم عليه إذن " إن علاقتنا بالمكان تنطوي على جوانب شتى ومعقدة تجعل معايشتنا له عملية تتجاوز قدرتنا الواعية؛ لتتوغل في لا شعورنا، فهناك أماكن تساعدنا على الاستقرار، وأماكن تلفظنا، فالإنسان لا يحتاج إلى مساحة فيزيقية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره، وتتأصل فيها هويته، ومن ثم يأخذ البحث عن الكيان، والهوية شكل الفعل على المكان؛ لتحويله إلى مرآة "[18]. تعكس الصورة الحقيقية لمشاعر الشاعر الحاقدة على الحياة التي تلفظه، وتسبب له الاضطراب. فنراه في

(15) عصام شرنح، جدلية الزمان والمكان، مقالة (مجلة ديوان العرب 2017).

(16) ينظر: سهير القلماوي، فن الأدب والمحاكاة، د. ط (دار الثقافة: القاهرة، 1973) ص104.

(17) عقبة الصفدي، الشعر العربي والأدب شعر الحكمة لأبي العلاء المعري، مقالة 4 (موقع بابونج للشعر العربي، 2017).

(18) جمال الدين حافظ محمد، شعرية المكان والزمان، مقالة، (مجلة علامات: النادي الأدبي الثقافي، جدة ،2004) ص61-62.

البيت التالي يعلن بصوت عالٍ حقده على الحياة، والمجتمع، فلم يعد المكان فقط هو عدوه اللدود بل المجتمع أيضا، فنسمعه يقول أيضا في المكان المعادي:

خَسِستِ يا أُمَّنا الدُنيا فَأُفِّ لَنا

بَنو الخَسيسَةِ أَوباشٌ أَخِسّاءُ

المكان حقير وخسيس، وكذلك المجتمع فهم يمتلكون المكر والخداع، فالمكان الذي يعيشون فيه قد طبع فيهم صفاته السيئة عليهم، فالإنسان ابن مكانه يتطبع بطبعه؛ لذلك ينعت بنعته، وهو مرتبط منذ القدم بالأرض (الدنيا) تصارعه وتضيق عليه. والصراع القائم بين المكان والمعري، هو صراع بغض وحقد " أبو العلاء المعري لا يمكن أن يأمن الحياة، وما تعطيه فهي في تقلب وكل الناس مهما علا شأنهم، فإن المآل واحد والدنيا صعبة المراس قاسية خسيسة "[19]. لذلك الشاعر لا يكن أدنى محبة للمكان الذي يعيش فيه، فالمكان هنا جسد النظرة الزهدية من الحياة، فالشاعر يتطلع إلى مكان أكثر أمانا، وأغزر وفاءً، وهذا المكان الأرض لا يمثل ذلك؛ لذلك نسمعه يسم الأرض بصفة أخرى تومئ بالحقد الدفين لها، يصور فيه المكان المعادي، فيقول:

وَقَد نَطَقتِ بِأَصنافِ العِظاتِ لَنا

وَأَنتِ فيما يَظِنُّ القَومُ خَرساءُ

فالمكان هنا ناطق، ولكنه في الوقت نفسه مكان أخرس، إذن الثنائية الضدية للمكان تعود مرة أخرى في صفة جديدة يتسم بها المكان بالخرس والنطق معا، فلغة المكان هنا تحتاج إلى نوع من التفسير؛ لأنها " لغة تتضمن معنى النطق والإبلاغ"[20]. فالمكان لا فائدة ترجى منه؛ لأن لديه الكثير من العظات التي إن أراد أن يفصح عنها لن تكون سوى همهمات لا فائدة غنية ترجى منها، فالشاعر " يلجأ إلى أغوار نفسه البعيدة يستمد من مخزونها الرموز المتباعدة في المكان؛ لينقل شعورا، أو فكرة، أو حالة خاصة"[21]. ونجده يعود إلى المكان المعادي فيصوره بصورة تعلن عن بغضه له، كقوله:

إِذا تَعَطَّفتِ يَوماً كُنتِ قاسِيَةً

وَإِن نَظَرتِ بِعَينٍ فَهيَ شَوساءُ

وتعود الثنائيات الضدية في المكان، فالمكان وإن تعطَّف يوما فهو قاسي، وإن نظر إليهم فعينه شوساء. فالعلاقة الضدية للمكان تبرز حالة التشتت، والتمزق الذي يبدو جليا في قصيدته، وهذا ما شخصته لفظة شوساء التي تتفشى فيها معاني التمزق و" التمزق كما هو متواضع عليه حالة ازدواج في الكيان النفسي ينعكس معها انشطار الوعي بفضل ضغوط خارجية أو تناقضات داخلية نفسية انعكاسية تنبع من تقمص تجربة ذاتية واعية أو غير واعية، فتصبغ تعبير الشاعر بالمرارة المأساوية"[22].

---

(19) عقبة الصفدي، الشعر العربي والأدب شعر الحكمة لأبي العلاء المعري، مقالة، مرجع سابق.

(20) جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ط1، (عيبال للدراسات والنشر: 1991) ص 12.

(21) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط 4، (دار غريب للنشر، القاهرة، د.ت) ص66.

(22) محمود سليم هياجنة، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، د. ط (دار الكتاب الثقافي، د. م، 2005) ص122.

فالمكان لا يزال هو العدو المتربص بالشاعر، والشاعر لا ينفك يبث بين حين وآخر حقده وبغضه للمكان، وقد لعب التضاد لعبة نفسية أبرزت بعض ملامح واقعه المضطرب الذي يموج بالثنائيات، والمتناقضات والصراعات بين محوري التجاذب، كما يعبر عن نفسه القلقة المتوترة التي تفتقد إلى الحياة الآمنة، والعيش المستقر في ظل مكان شديد التقلب والتغير[23]، وينقل أبو العلاء المعري صورة أخرى تصور المكان المعادي، فيقول:

إِنسٌ عَلى الأَرضِ تُدمي هامَها إِحَنٌ

مِنها إِذا دَمِيَت لِلوَحشِ أَنساءُ

ويعود إلى المجتمع الذي يعيش على المكان المعادي الأرض، فيصفه بالحقد والمضاغنة العظيمة، فالمجتمع حاقد لا يرجى منه الخير؛ لأن الأرض التي يعيشون عليها هي التي جعلتهم يتصفون بتلك الصفة التي نجدها عالقة في ذهن الشاعر، فالأرض ما هي إلا مصدر قلق للشاعر، فمحور المكان يرتبط بهموم الشاعر؛ لأن " حياة الإنسان لها محوران هما المكان الذي يرتبط به الهموم الحسية، والزمان الذي تقترن به الهموم، وبين المحورين تمتد الحياة واسعة عريضة، فإذا تناول المكان فإن ذلك لا يعفيه من أثر اقتران المكان بهموم الشاعر"[24] ثم أيضا نجد الثنائيات التي لا ينفك الشاعر يربطها بالمكان (إنس- وحش) هذه العلاقة الطباقية تتماهى فيها دلالات الإحاطة والشمول، فجميع من يعيشون على هذا المكان مطبوعون بطابع الحقد، وهذا أمر لا يبعث على الدهشة طالما هم يعيشون في هذا المكان المعادي الذي عده الشاعر مسرحا تتبادل فيه الشخصيات الماثلة في الناس والوحوش أنواع الحقد والخسة، التي كان بطلها المكان الأرض الحياة المعادية.

وينقلنا أبو العلاء المعري إلى مكان جديد حقيقي " وأُطلِق عليه تسمية حقيقي لأنه حقيقة ماثلة ... فالأرض مكان مسرح الأحداث والقصص التي تدور عليها"[25]. والجبال جزء من هذا المكان فيقول:

فَلا تَغُرَّنكَ شُمٌّ مِن جِبالِهِمُ

وَعِزَّةٌ في زَمانِ المُلكِ قَعساءُ

نالوا قَليلاً مِنَ اللَذّاتِ وَارتَحَلوا

بِرَغمِهِم فَإِذا النِعماءُ بَأساءُ

فلا تغتر إيها القاطن في هذا المكان بشيء، فكل شيء مهما علا وارتفع، لابد أن يأتي يوما ينحدر فيه ويسقط، كذلك فالملوك بقدر ما لديهم من عزة قسعاء ثابتة ممتنعة إلا أنهم ارتحلوا عن هذا المكان، فتحولت النعماء إلى بأساء، إذن هكذا هي الحياة على الأرض لا شيء دائم ولا أمل باقٍ، واللبيب من يتعظ ولا يغتر بملذاتها وأهوائها، فكل من يمتلكون العزة والأنفة والملذات من الملوك محقوا وارتحلوا من هذا المكان. فالمكان هنا يجسد هاجسا مخيفا

(23) ينظر: أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، ط3 (دار الوفاء للطباعة، د. م 2003) ص277.

(24) بتول البستاني، ظاهرة الشكوى في شعر هذيل، أطروحة جامعية؛ لنيل درجة الماجستير (جامعة الموصل: كلية الآداب، 2009) ص5.

(25) أسيل أنور محمد، الدلالة النفسية في سردية الشعر المعاصر لزوميات خمسميل مثلا، مقالة (مجلة القادسية للعلوم الإنسانية: ع1-2، 2008) ص239.

مقلقا للشاعر، ونلحظ هذه الدلالة النفسية في استخدام الشاعر للتضاد الذي عكس لنا حالة الصراع النفسي الذي يعانيه الشاعر، وحالة القلق والتوتر الذي يشعر به إزاء المكان.

وهكذا نجد أن المكان المعادي هو المقلب، والمغير لأحوال الناس، فهو المدمر الذي يفتك بالخلق وفيه من الحقد والخساسة ما فيه، والناس قد تطبعوا واتصفوا بصفاته، وساروا على منواله في الخسة والدناءة وقلة المروءة؛ لذلك الشاعر يبغض المكان والمجتمع معا، فهو لا يشعر بالأمان والاستقرار في ظل هذه الأجواء السوداوية المليئة بالحقد؛ لهذا الشاعر يرى المكان عدوه اللدود الذي يكن له البغض والحقد.

وينتقل أبو العلاء المعري إلى مكان آخر من الأرض وهو البحر، ويمثل:

الأماكن المفتوحة، والمغلقة، كقول الشاعر:

يَموجُ بَحرُكِ وَالأَهواءُ غالِبَةٌ

لِراكِبَيهِ فَهَل لِلسُفنِ إِرساءُ

فبحر الأرض يموج ويتحرك كما تموج وتتحرك الأهواء الغالبة في النفس، وهذه الأهواء بمثابة السفن التي يقذفها البحر هنا وهناك، فاستخدم الشاعر المكان المفتوح الذي تمثل في البحر، والمكان المغلق المتمثل في السفينة، فالبحر بأمواجه العاتية العالية مصدر خوف وشتات، والأماكن المفتوحة لدى الشاعر أماكن عدائية، فالإنسان بطبيعته يخشى كل شيء يجهله، وهنا تكمن المفارقة فالأرض عدائية للشاعر، وكذلك البحر عدو له، وأمام هذه العظمة القوية يقف الشاعر موقف الضعيف أما م هذه القوة الكونية المكانية المعادية، فيأتي برمز السفينة التي أضفت على النص الدلالة المكانية المغلقة، وهو المكان المغلق الذي يبحث بين ثناياه عن الاستقرار، وهو بذلك يؤدي دلالة خطابية يرمي إليها مجتمع السفينة (الركاب) الدلالة العامة التي تنتظم بها حياة جميع الراكبين، فإضافة السفينة يُعَدَّ مكانا لغلبة أهواء الراكبين، فالحالة النفسية للمكان المغلق يتجسد في الحركة الموجة المتمثلة في حركة أمواج البحر[26]. فالسفينة " في تشكيل الصورة الشعرية لا تنفصل عن أفكار القصيدة، و إنما تظل أصداؤه تتجاوب في أنحاء القصيدة مؤكدة لشيء ما، فليس اختيارها إذن تعسفا أو اعتباطيا، وإنما تدعو إليه ضرورة نفسية"[27]. وهي البحث عن الاستقرار النفسي المكاني.

ونخلص من الدراسة المكانية تنوع المكان الذي استخدمه الشاعر رغم أنه متمسك بالمكان الحقيقي، الأرض (الحياة الدنيا)، فيرى المكان عدوه اللدود، بجميع حالاته سواء كانت تلك الأماكن مفتوحة أو مغلقة أو متناهية في الكبر، وهذا كله يجسد الحالة النفسية للشاعر، ويوضح مدى بغضه للمكان، كما أن استخدام الشاعر للثنائيات أثرى هذا الجانب أيضاً، وكشف عن اضطرابه النفسي، وقلقه الشعوري، وتشتته الوجداني.

(26) ينظر: غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، مرجع سابق، ص39.

(27) عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، مرجع سابق، ص67.

أما الشق الثاني من الدراسة، فيتمثل في الزمانية:

إن الأحداث الزمانية ترتبط بالحدث المكاني، وتعرف الزمانية في الأحداث على أنها: " تقدير الأشياء من وجهة نظر تطورية تاريخية من خلال تعاقب الزمن، ويُعْنَىَ الدارسون من خلاله بدراسة ظاهرة من ظواهر اللغة في حيز زمني غير محدد، وهو مقابل لمصطلح الآنية أو التزامنية"[28].

"وهو عبارة عن توقع وانتظار وآت تدخل الذاكرة بكل ثقلها وقدرتها على التمدد في جميع الأزمنة، كونها محرك استحضار الزمن الذي ينطلق من الصورة الداخلية للنص، والتي لعبت دورا هاما في النص لاعتمادها المجتمع والتاريخ المادة الأساس لهذا العمل الأدبي"[29]، وقد استخدم الشاعر دلالات زمنية متعددة، فعلى سبيل المثال الزمن المقيد:

قد يطلق عليه الزمن العام أيضاً وهو: " الزمن المطلق الحقيقي الرياضي يجري بنفسه وبطبيعته بصورة مضطردة"[30] كقوله:

يَأتي عَلى الخَلقِ إصباحٌ وَإمساءُ

وَكُلُّنا لِصُروفِ الدَهرِ نَسّاءُ

فالزمن هنا مقيد بفترة (الصباح والمساء) فالخلق يأتي عليهم الإصباح والإمساء في حركة متكررة ومتعددة، ولكنهم لا يتعظون بتغير حالهم، فالزمن هنا يستحيل بموجب محتوى النص إلى سلسلة من الحركات المتموجة المختلطة، التي تتلاعب في إدراك المشاعر، مما يكسب النص طاقة قوية لها صفة الإشعاع الحي[31]. فالشاعر قيد الزمن؛ ليستطيع أن يعبر عما يكنه قلبه من بغض للمكان؛ لأن " أكثر اللحظات عمقا وأصالة في العمل الأدبي، هي تلك التي تصور الذات في محنتها الزمنية الحقيقية، والفهم لا يمكن أن يكون كاملا إلا حين يصبح واعيا محنته الزمنية، ويدرك أن الأفق الذي يمكن أن تحدث فيه العملية الإجمالية إنما هو الزمن بأسره"[32].

إذن الزمن المقيد أكسب النص طاقة متموجة متكررة، تتموج فيها المحن وتتنوع فيها الصروف. وكذلك تطرق الشاعر إلى استخدام الزمن المطلق: وهو الذي يكون ضد المقيد " غير المؤقت بمعنى لم يجعل له وقتا محددا لأدائه"[33]. يقول الشاعر:

نالوا قَليلاً مِنَ اللَذّاتِ وَارتَحَلوا

بِرَغمِهِم فَإِذا النِعماءُ بَأساءُ

---

(28) ميلود قناني، الحقول المعجمية ودلالتها في شعر محمد مهدي الجواهري في أعماله الكاملة، دراسة أسلوبية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات البلاغية (جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر) ص332.

(29) تودورف، طرائق تحليل السرد الأدبي، تر: الحسين سبحان، فؤاد صفا، ط1(اتحاد كتاب المغرب، المغرب، 1992) ص45.

(30) أحمد حمد نعيمي ، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ط1 (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د. م ، 2004) ص74.

(31) ينظر: قصي الحسين، تشظي السكون في العمل الفني، ع.92 (بيروت، لبنان، 1998) ص207.

(32) أحمد حمد نعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، مرجع سابق، ص160.

(33) أحمد الريسوني، التجديد الأصولي، نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، ط1 (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. م، 1436) ص461.

فالزمن هنا عبارة عن خيط وهمي مطلق يجعل الإنسان ينغمس في ملذات الدنيا، ثم تكون المفاجأة الرحيل الذي يتحول فيه زمن النعمة إلى زمن بؤس وحزن. ويذكر الشاعر مثالا آخر نلمس فيه تعلق الشاعر بالزمن المطلق، كقوله:

يَموجُ بَحرُكِ وَالأَهواءُ غالِبَةٌ

لِراكِبَيهِ فَهَل لِلسُفنِ إِرساءُ

فاستفهام الشاعر عن زمن إرساء السفينة يحمل دلالة زمنية طويلة للرحلة التي يستقلها الراكبون الذين يموج بهم بحر الهموم، فرحلة الهموم مطلقة مستمرة غير مقيدة بزمن معين. وعلى هذا فالزمن قد لا يكون زمنا ودودا ولطيفا؛ لأنه لا يحمل حلولا لمعضلات لم تكن تبدو في طريقها للحل[34]، فزمن الإرساء لا يبدو قريبا بالنسبة للشاعر؛ لذلك جاء بالاستفهام. وهكذا، فإن الزمن المطلق يشير إلى رغبة الشاعر في إيجاد حلول وأزمنة يتمكن فيها على السيطرة على الزمن المتقلب، الذي أضحى يجرعه أنواع الهموم والصروف. ونجد أبا العلاء المعري يتناول الزمن الاسترجاعي، ويطلق عليه:

تقنية الاسترجاع:

ويقصد بها استرجاع الزمن الماضي حسب الحالة الشعورية للشاعر؛ لأن كل عودة للماضي تشكّل، استذكاراً يقوم به لماضيه الخاص، ويحيلنا الشاعر من خلاله على أحداث سابقة[35]. هذه الأحداث قد يكون استرجاعها لبث الوعظ والنصيحة، ويبرر موقفه من الزمن، ومن ذلك قول أبي العلاء المعري:

وَمن لِصَخر بنِ عَمرٍو أَنَّ جُثَّتَهُ

صَخرٌ وَخَنساءَهُ في السِربِ خَنساءُ

فالشاعر استحضر شخصية صخر بن عمرو وأخته الخنساء؛ ليؤكد على أن الزمان لا يبقى على حاله، فصخر بفعل الزمن تحولت جثته إلى صخر، كذلك الخنساء فقد سارت أيضا في ذلك المسلك. "فالاسترجاع لا يوشك في أي لحظة أن يتداخل مع القصيدة؛ لأن وظيفته الوحيدة هي تنوير السامع بخصوص هذه السابقة أو تلك"[36]. فالشاعر ذكر زمنهم؛ ليوضح تقلب الزمن وتغيره، كما أن هناك دلالة معنوية تكمن في النصح والإرشاد.

ونخلص مما سبق إلى أهمية الزمن بكل أنواعه في القصيدة، فقد أبرز الزمن التجارب والانفعالات التي صاحبت الحالة الشعورية للشاعر، كما أن الزمن وضح الدلالة النفسية المقترنة بشعور الشاعر، فغدت جلية واضحة.

---

(34) ينظر: أحمد حمد نعيمي ،إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة ، مرجع سابق، ص76.

(35) ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الرّوائي، ط1، (المركز الثقافي العربي، بيروت،1990) ص121.

(36) جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، ط1 (المجلس العلمي للثقافة، د. م، 1997) ص61.

الخاتمة

استهدف هذا البحث قصيدة لأبي العلاء المعري بعنوان (يأتي على الخلق إصباح و إمساء) دراسة زمكانية وقد خرج البحث بجملة من النتائج، وهي:

- إن المكان المتناهي في الكبر، استطاع أن يكشف عن علاقة الشاعر به، التي تمحورت في وجس وخوف الشاعر من المكان باعتباره المسؤول الوحيد عن الصروف والمشاكل التي يتعرض لها الخلق..
- قدرة المكان المعادي والأليف في توضيح تذبذب الشاعر واضطرابه وتأرجحه، كما أعلن المكان عن نظرة الشاعر إليه بنظرات متعددة، سواء كانت نظرات سلبية أو إيجابية.
- المكان المعادي هو المقلب والمغير لأحوال الناس، فهو المدمر الذي يفتك بالخلق وفيه من الحقد والخساسة ما فيه، والناس قد تطبعوا واتصفوا بصفاته وساروا على منواله في الخسة والدناءة وقلة المروءة؛ لذلك الشاعر يبغض المكان والمجتمع معا، فهو لا يشعر بالأمان والاستقرار في ظل هذه الأجواء الدنيئة الخسيسة؛ لهذا الشاعر يرى المكان عدوه اللدود الذي يكن له البغض والحقد.
- الأماكن المفتوحة والأماكن المغلقة تشير إلى دلالات نفسية تكتظ في قلب الشاعر.
- نخلص من الدراسة الزمنية إلى أهمية الزمن بكل أنواعه في القصيدة، فقد أبرز الزمن التجارب والانفعالات التي صاحبت الحالة الشعورية للشاعر، كما أن الزمن وضح الدلالة النفسية المقترنة بشعور الشاعر، فغدت جلية واضحة.

والحمد لله رب العالمين، وصل اللهم على سيدنا وحبيبنا محمد وعلى صحبه وسلم.

المصادر والمراجع

1- أحمد الريسوني، التجديد الأصولي، نحو صياغة تجديدية لعلم أصول الفقه، ط1 (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. م، 1436).

2- أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، ط2، ج1، (مؤسسة الأعلمي، بيروت، 1971).

3- أحمد حمد نعيمي، إيقاع الزمن في الرواية العربية المعاصرة، ط1 (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، د.م، 2004).

4- أسيل أنور محمد، الدلالة النفسية في سردية الشعر المعاصر لزوميات خمسميل مثلا، م، 11 (مجلة القادسية للعلوم الإنسانية: ع، 1-2، 2008).

5- أشرف محمود نجا، قصيدة المديح في الأندلس قضاياها الموضوعية والفنية عصر الطوائف، ط3 (دار الوفاء للطباعة، د. م 2003).

6- آنا زايكا، الزمكانية في الأدبين المصري والفلسطيني، ع 252(مجلة: 2011).

7- بتول البستاني، ظاهرة الشكوى في شعر هذيل، أطروحة جامعية؛ لنيل درجة الماجستير (جامعة الموصل: كلية الآداب، 2009).

8- تودورف، طرائق تحليل السرد الأدبي، تر: الحسين سبحان، فؤاد صفا، ط1(اتحاد كتاب المغرب، المغرب، 1992).

9- جابر عصفور، قراءة التراث النقدي، ط1، (عيبال للدراسات والنشر: 1991).

10- جمال الدين حافظ محمد، شعرية المكان والزمان، مقالة، ج52(مجلة علامات: النادي الأدبي الثقافي، جدة، 2004).

11- جيرار جنيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، تر: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي، ط1 (المجلس العلمي للثقافة، د. م، 1997).
12- حسن بحراوي، بنية الشكل الرّوائي، ط1، (المركز الثقافي العربي، بيروت، 1990).
13- حسن شوندي، الزمكانية في رواية أعاصير في بلاد الشام، مقالة (جامعة آزاد الإسلامية، 1390).
14- حسين سرمك حسن، على الإمارة، لزوميات خمسميل، مقالة، (مؤسسة النور للثقافة والإعلام، بغداد، 2010).
15- حمادة سديف، وظيفة المكان، وأهميته في الرواية المعاصرة، مقالة (مجلة العهد، بيروت، 2008)، ع1286.
16- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج1، ط15 (دار العلم للملايين، بيروت، 2002).
17- سهيلة عمر، الثنائيات المكانية عند شعراء جماعة الرابطة القلمية من جغرافيا المكان إلى شعرية المكان، د. ط (جامعة الجيلالي لياس، سيدي بلعباس، الجزائر، د. ت).
18- شمس الدين أحمد ابن خلكان، وفيات الأعيان.، تح: إحسان عباس، ج1، ط1، (دار صادر: بيروت، 1971).
19- صبري حافظ، حول محطة سكة الحديد لإدوارد، مقالة، (مجلة الأقلام: عدد 12، 1986).
20- صلاح الدين خليل الصفدي، نكث الهميان في نكت العميان. تح: مصطفى عبدالقادر عطا، ج1، ط1، (دار الكتب العلمية، بيروت، 2007).
21- عز الدين إسماعيل، التفسير النفسي للأدب، ط 4، (دار غريب للنشر، القاهرة، د.ت).
22- عقبة الصفدي، الشعر العربي والأدب شعر الحكمة لأبي العلاء المعري، مقالة 4 (موقع بابونج للشعر العربي، 2017).
23- غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، ط1 (دار ابن هانئ، دمشق 1989).
24- قصي الحسين، تشظي السكون في العمل الفني، ع.92 (بيروت، لبنان، 1998).
25- محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء .تح: شعيب الأرناؤوط، ج18 ط3 (مؤسسة الرسالة، بيروت، 1985).
26- محمود سليم هياجنة، الاغتراب في القصيدة الجاهلية، د. ط (دار الكتاب الثقافي، د. م، 2005).
27- ميلود قناني، الحقول المعجمية ودلالتها في شعر محمد مهدي الجواهري في أعماله الكاملة، دراسة أسلوبية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في الدراسات البلاغية (جامعة أبي بكر بلقايد، الجزائر).

Reading the poems in Abbasid era
The time and place In poem (Comes to the Creation of darkness and sunshine)
to Abi Alaa AL-Maarri

Abstract: This study deals with a poem about (**Comes to the Creation of darkness and sunshine**) to Abi Alaa al-Maarri ، according to a study of the temporal dimension (**The time and place**) of the poem. In spite of the existence of studies that touched upon the poetry of Al-Ma'ri from the technical and historical point of view ،to read this poem and analyze it ،and to discover the types of entry in it. The study aimed to read the poem a different reading .

Through the focus on the poetic space ،which allows the reader to dig deep in the poetic text ،and explore the meanings of the meanings ،discover the poetic state of the poet ،and reflect the aesthetic values in the text characteristic of the poet's view of life ،through the linguistic connotations that the study is trying to be questioned. The study concluded the results of the most important: the diversity of places at Abu Alaa Maari ،there is the finite place in the grave and the open and closed place ،and the enemy and the kind ،all indicate psychological connotations full of the heart of the poet. The time also highlighted the experiences and emotions that accompanied the poetic state of the poet ،as time has elucidated the psychological significance associated with the feeling of the poet.

Keywords: Time and Place ،Abi Alaa al-Maarri ،Finite ،Open ،Closed ،The enemy ،The kind ،Grass widower ،Limited.